Features of Social Criticism in the Poetry of Usama ibn Munqidh (D. 584 AH)

Safaa Ali Hussein
Department of Arabic Language, College of Arts, University of Anbar, Ramadi, Iraq
sailhe.75@uoanbar.iq

KEYWORDS: **Criticism, Social, Usama ibn Munqidh, Poetry.**

https://doi.org/10.51345/.v36i1.1042.g515

ABSTRACT:

The research aims to study the features of social criticism in one of the poets of the Ayyubid era, namely Osama bin Munqidh, the poet and prince who was known to be one of the most important poets of the Crusades, to the point that his poems in those battles were considered important historical documents. The poet cast his penetrating gaze on his society at that time, shedding light on its faults and revealing its diseases and weaknesses. His role was not limited to mere diagnosis, but rather went beyond that to provide us in some of his texts with an accurate description of the treatment with which he treated these negative phenomena in society.

ملامح النقد الاجتماعي في شعر أسامة بن منقذ (ت 584هـ)

أ.م.د. صفاء علي حسين
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الانبار، العراق
sailhe.75@uoanbar.iq

الكلمات المفتاحية | النقد، الاجتماعي، أسامة بن منقذ، شعر

https://doi.org/10.51345/.v36i1.1042.g515

الملخص:

يهدفُ البحث إلى دراسة ملامح النقد الاجتماعي عند أحد شعراء العصر الأيوبي، ألا وهو أسامة بن منقذ الشاعر الأمير الذي عَرف عنه أنّه واحدٌ من أهم شعراء الحروب الصليبية حتى عَدّت قصائده في تلك المعارك وثائق تأريخيةً مهمةً.

وقد ألقى الشاعر بنظراته الثاقبة على مجتمعه في ذلك العصر مُسلطًا الضوء على عيوبه، وكاشفًا ما كان فيه من أمراض وهنات، ولم يقتصر دوره على مجرد التشخيص بل تجاوز ذلك، ليقدّم لنا في بعض نصوصه وصفًا دقيقًا للعلاج الذي يداوي به هذهَ الظَّواهر السلبية في المجتمع.

المقدمة:

أهداف بحث ملامح النقد الاجتماعي في شعر أسامة بن منقذ:

1. تحليل المضمون الاجتماعي: دراسة الأبعاد الاجتماعية والقضايا التي تناولها أسامة بن منقذ في شعره، مثل الطبقات الاجتماعية، والعلاقات الإنسانية، والظواهر الاجتماعية السلبية السائدة في عصره.
2. رصد مظاهر النقد الاجتماعي: تسليط الضوء على كيفية تعبير الشاعر عن النقد الاجتماعي عن طريق أسلوبه الشعري.
3. إبراز أثر الشعر كوسيلة للنقد: توضيح كيف يمكن أن يكون الشعر وسيلةَ فعالة لنقل النقد الاجتماعي والتعبير عن هموم المجتمع.

أهمية البحث:

1. فهم العلاقة بين الأدب والمجتمع: يبرز البحث دور الشعر في التعبير عن قضايا المجتمع، مما يعزز فهم العلاقة بين الأدب والواقع الاجتماعي.
2. الكشف عن هموم العصر: يساعد البحث في تسليط الضوء على المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت موجودة في عصر أسامة بن منقذ، مما يعكس صورة دقيقة للواقع التاريخي.

3. إبراز دور أسامة بن منقذ: يظهر البحث مكانة أسامة بن منقذ الشاعر الناقد والمصلح الاجتماعي، مسلطًا الضوء على إسهاماته في تناول قضايا مجتمعه بجرأة وعمق

المنهج المتبع في الدراسة: المنهج التحليلي–الوصفي

توطئة:

تهدف الدراسة إلى إظهار ملامح النقد الاجتماعي عند أحد شعراء العصر الأيوبي، ألا هو أسامة بن منقذ الشاعر الأمير وقد عدَّ واحدًا من أبطال الإسلام في الحروب الصليبية، وكانت قصائده تمثل وثائق تأريخية مهمة.

ولا ريب أنّ الشاعر هو ابن بيئته يتأثر بما حوله، وقد أشار أسامة في ديوانه إلى مكامن الضعف والقصور في محيطه الاجتماعي، وبين الظواهر السلبية فيه، مثل البخل والظلم وشيوع الجهل والخضوع للأمر الواقع...، وغيرها، ولم يكتف الشاعر بذلك بل شخّص في بعض قصائده العلاج اللازم لهذه الأمراض الاجتماعية التي باتت تهدد تماسكه وتقوض بنيانه، منطلقًا من نزعة دينية وقيم اجتماعية رفيعة.

وقد بدأت الدراسة بلمحة عابرة عن حياة الشاعرً، مرورا بأهم ما قاله الأدباء عنه، ثم بين الباحث مفهوم النقد الاجتماعي، وملامحه في شعره، ثم ختمت الدراسة بأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.

نبذة عن حياة الشاعر:

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ[1]، ولد سنة (488هـ) في أسرة توارثت إمارة شيزر، وهي مدينة في الشمال الغربي لحماة.

نشأ الشاعر نشأةً صالحةً برعاية والديه، وكان والده يعوده الشجاعة والإقدام، فكان يتركه يقتحم المخاطر منذ صغره، فنشأ قويا شجاعا لا يهاب الموت، حتى أصبح بطلاً من أبطال الإسلام ــيشار إليه بالبنانــ في زمن الحروب الصليبية[2] ، وقد تلقى العلم في بلده على عادة الأمراء في ذلك الوقت، فدرس الفقه، والحديث، وعلوم العربية، وكانت له اليد الطولى في الأدب والكتابة والشعر[3].

وأسهم أسامة بن المنقذ في الدفاع عن الإسلام جامعا بين نضاله بالسيف وإبداعه بالشعر، وفي قصائده أشار إلى أسماء المعارك التي خاضها، مستعرضا نتائجها ومبينا ما أنجزه المسلمون تجاه قادة أعدائهم[4].

ولأسامة بن المنقذ ما يقارب العشرين مصنفا ضاع أكثرها، وطُبع بعضها ومن هذه المؤلفات كتاب (الاعتبار)، و(المنازل والديار) ، و(البديع في نقد الشعر)، و(الشيب والشباب)، وغيرها وله ديوان كبير، وقد أثنى القدماء

على شعره كثيرا، إذ قال الأصفهاني عنه: (أسامة كاسمه في قوة نظمه ونثره، يلوح في كلامه أمارة الإمارة، ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة)[5].

وقال ياقوت الحموي في معجمه: (وفي بني منقذ جماعة أمراء شعراء، لكن أسامة أشعرهم وأشهرهم)[6]

أما ابن كثير فقد أثنى عليه كثيرا ،إذ قال:(له أشعار رائقة ومعان فائقة، ولديه علم غزير)[7]

وقد قام الشاعر برحلات عدة في مصر والشام وبلاد الجزيرة، وغيرها توفي بدمشق سنة (584) من الهجرة.

مفهوم النقد الاجتماعي:

وهو أن يجتهد الأديب في أن يضع يده على ما يظنه هو موضع الداء[8]، في محاولة منه لوصف الدواء؛ لأنّ (للفن وظيفة اجتماعية، والفنان يعبر واعيا أو غير واعٍ عما يسود مجتمعه وعصره من اتجاهات ومثل وتطلعات وآمال، والفنان مشبع بأفكار وتجارب عصره، وقد يدفعه طموحه لا إلى تصوير الواقع وحسب بل إلى تشكيله)[9].

ويتحمل الشعراء جزءا من العبء(في استكانة الجوانب الإنسانية بعامة، والعمل على إحياء الخلية الميتة، وإيقاظها من جديد في نفوس أفراد المجتمع، والخروج من دائرة الذاتية إلى حياة الجماعة وأحلامها)[10].

ويرى أحد الباحثين أن النقد الاجتماعي هو في يد الشاعر سلاح ذو حدّين فأما (أن يشير إلى مكامن الخلل والداء ويتفاعل مع مجتمعه بشكل إيجابي، وأما أن يزيد من تعميق المأساة والجراح، ويزيد من الحسرات والبكاء والنواح)[11].

نستشف من ذلك أنّ النقد الاجتماعي يهتم بالكشف عن عيب أو نقص خفي، وهذا العيب قد يكون دينيا أو أدبيا أو سياسيا أو اجتماعيا[12]؛ (وبذلك لم يعد الشعر مجرد تعبير عن الشعور الذاتي بل أصبح ذا أثر توجيهي نقدي يهدف إلى تحقيق الغرض المقصود)[13].

خصص أسامة بن منقذ جزءا معتبرا من شعره لتسليط الضوء على عيوب مجتمعه وانتقادها، وقد تجلت مظاهر النقد في شعره في جانبي رئيسين، أولهما: نقد الظواهر الاجتماعية المنتشرة في مجتمعه مثل غياب العدالة الاجتماعية وعدم تقدير أصحاب العلم والكفاءة، والخضوع للظلم...وغيرها، وثانيها: تناولُ العيوب الفردية كالبخل والوشاية والغدر والغفلة وما شابهها.

ومن بين الظواهر الاجتماعية السلبية[14]، العامة التي سلط الضوء عليها الشاعر ظاهرة الخضوع والقبول بالظلم، كقوله[15]:

الضرُّ في أيامنا هذه كالليل يغشى سائر الناس

وكلُّهم راضٍ، وفوق الرضا ببُلغة الطاعم والكاسي

ينتقد الشاعر في هذا الموضع صبر الناس على الظلم

واستسلامهم له في زمانه، مشيرا إلى أنّ هذا الظلم قد استشرى وانتشر في البلاد حتى أصبح كليلٍ مظلمٍ يغشى الجميع من دون استثناء.

وقد أسهم التشبيه المستخدم في تبيين الفكرة، وتعزيز المعنى الذي يرومه، فالناس راضيةٌ خاضعةٌ للأمر الواقع، ولا يتحركون لتغيير هذا الواقع، وقد كان لتضمين (الطاعم الكراسي) أثر واضح في تأكيد المعنى الذي يسعى الشاعر الى إبرازه، إذ تضمنت إشارةً غير مباشرة إلى بيت الحطيئة الشهير في هجاء الزبرقان بن بدر[16]:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فأنت الطاعم الكاسي

وهنا فيه تشبيه لهم بالنساء القاعدات في البيوت، يأتيهن طعامهن وشرابهن وكسوتهن، وفيه هجاءٌ مقذع.

فالشاعر يعبّر عن إحباطه من هذا الواقع المؤلم، ويعتقد أنّهم باتوا يرضون بالحدّ الأدنى والكفاف من دون إرادة حقيقية للتغيير، وفي السياق نفسه قوله[17]:

لو صبرنا على البلاء احتسابا لرجونا عنه جزيل الثواب

غير أنّ اصطبارنا صبر عجزٍ واضطرارٍ، كذا صبر الدواب

فلحى الله أنفسا ترتضي العيـ ـشَ إذا كان فيه ذُلّ الرقاب

الأبيات تعكس نقداً لاذعا لقبول الناس بالأوضاع الصعبة، فهم يستسلمون لضغوط الحياة من دون حتى محاولة لتغييرها، فأسامة أراد أن يبين الفرق بين الصبر الذي يدلّ على قوة الإيمان وبين الرضوخ والخنوع، فهم ليست لهم إرادة بل أُجبروا على ذلك.

وقد شبه صبرهم بصبر الدواب دلالة على عجزهم وضعفهم ورضوخهم لهذا الواقع البائس، ثم يستعمل الشاعر صياغة الدعاء عليهم (لحى الله أنفسا)[18]، أي: قبحها ولعنها؛ لأنّها رضيت بهذا العيش مع الذّلة.

ونلحظ أنّ الشاعر قد تأثر بقول الله تعالى:﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[19]، فهم مثل الأنعام في الأكل والشرب والشهوة من دون عقول تقودهم إلى سلوك الطريق القويم.

وانتقد أسامة بشدّة غياب العدالة الاجتماعية، ومن أبرز ما ركز عليه هو تفضيل الجهلاء ورفع مكانتهم، وتهميش أصحاب العلم وإقصائهم عن المناصب، من ذلك قوله[20]:

أبا تُرابٍ دهرنا جاهل يرفع للشبه ذوي الجهل

كأنّه الميزانُ يعلو به ذو النقصِ عن رتبة ذي الفضلِ

فالشاعر يصبُّ جام غضبه على مجتمعه، إذ يتم فيه تفضيل الأشخاص غير الأكفاء او ذوي الشبهات على أصحاب العلم والحكمة، فأسامة يعبر عن اختلال القيم الاجتماعية، إذ يتبوأ ذوو الجهل المكانة الرفيعة التي لا يستحقونها، في حين أنّ أهل المعالي والعلم والشرف يستبعدون منها، فالمجتمع أصبح كالميزان الذي يرفع الفارغ، ويخفض أصحاب الثقل، بل يناصبهم العداء، فالشاعر يسلط الضوء على تدهور المعايير الاجتماعية، ونرى أنّه قد تأثر كثيرا بابن الرومي في قوله[21]:

نحن أحياء على الأرض وقد خسف الدهر بنا ثم خسف

أصبح السافل منا عالياً وهوى أهل المعالي والشرف

وبقول المتنبي[22]:

ذو العقلِ يشقى في النعيمِ بعقله وأخو الجهالَة في الشقاوة ينعمُ

ويرى الشاعر أن الزلازل التي ضربت البلاد الإسلامية ولا سيما زلازل حماة قد جاءت كتنبيه للغافلين ، ليوقظهم إلى الحقائق الكبرى في هذه الحياة، فقد انصرفوا عن العمل بما يرضي الله تعالى، وانشغلوا بملذات الدنيا وزخارفها حتى ضلّوا سبيل الهداية، إذ قال أسامة[23]:

أيها الغافلون عن سكرة الموت إذ لا يسوغ في الحلق ريقُ

كم إلى هذا التشاغل والغفلةُ حار الساري وضلَّ الطريقُ

إنّما هزت الزلازل هذي الأر ض بالغافلين كي يستيقظوا

فكأنّ الشاعر في هذه الأبيات الشعرية ارتقى منبراً من منابر الإصلاح، فأخذ يوجه الناس ويحثّهم فيه على العودة إلى الله تعالى، ونبذ عشق الدنيا.

ومن هذه الظواهر الاجتماعية التي كشف الشاعر النقاب عنها انتشار البخل وشيوع الجشع ،إذ قال[24]:

من مبلغ المعتر والقانعِ وابن السبيلِ النازح النازعِ

إنّ الندى قد مات فاستعصموا باليأس من دان ومن شاسعِ

لا ترجون خلقًا، فكل الورى يقبض كفّ المانع الجامعِ

وما حوت أيديهم فهو في مثل لَهَاة الأسد الجائعِ

وكلُّهم إنْ أنت كشّفتهم مثلُ سرابِ القيعة اللامعِ

إنّ هذه التجارب الاجتماعية القاسية التي عاشها الشاعر أرهفت إحساسه (وجعلته يرصد أوجه النقص في العلاقات الاجتماعية ويشعر بتوتر حادّ بينما هو كائن وما ينبغي أن يكون، وقد تولّد من هذا الشعور نزعةٌ تشاؤميةٌ اتخذت مظهر القلق وفقدانَ الثّقة في الناس)[25].

ويرى الشاعر أنّ موت الكريم يمثّل انقطاعاً لمنبع الكرم الوحيد الذي كان يسعف الناس، لذا كان اليأس خياره وخيار الناس، وقد أضفت المفارقة أثراً كبيراً في إثراء النص في قوله (فاستعصموا باليأس) ، فالمفروض من حيث المنطق أن يكون الاعتصام بالأمل لا بضده(اليأس)كما قال الشاعر[26]:

أعلّلُ النفس بالآمالِ أرقُبُها ما أضيقَ العيش لولا فسحةُ الأملِ

ونرى أن في النص نزعة تشاؤمية، وقد أسهم التشبيه في إقناع المتلقي باستحالة العطاء في هذا المجتمع عندما شبه ما عند أيدي الناس بمثل الطعام في لهاة الأسد الجائع، وهي صورة تثير الرعب في نفس المتلقي وقد أدت دورها في بيان البخل الذي اكتنف أفراد المجتمع، وكذلك تشبيههم بسراب القيعة ،إذ يبدو متأثرا بما ورد ذكره في القران الكريم: ﴿والّذين كَفَروا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظّمْآنُ ماءً﴾[27]، وفي ذلك دلالة على عدم حصول المنفعة منهم مثل السراب.

وسلط الشاعر الضوء على اعتقاد البعض بأنّ زيادة السعي تؤدي الى وفرة الرزق، متجاهلين أنّ الله تعالى قد قسم الأرزاق بين عباده، ومن هذا المنطلق يدعو الشاعر إلى التمسك بتعاليم الدين الإسلامي في فهم الرزق والعمل، إذ قال[28]:

العجز لا ينقص رزقًا ولا يزيده حولٌ ولا فحص
كلٌّ له رزقٌ سيأتيه ولا زيادةٌ فيه ولا نقص
وقد ضمن الله لنا رزقنا جاءت به الآثار والنص
فما لنا نطلب من غيره لولا قنوطُ النفسِ والحرصَ

الشاعر يؤكّد أنّ الرزقَ مكفولٌ للجميع، وليس لزيادة السعي أو شدّة الحرص أثر في زياده، فكل شخص سيأتيه رزقه كما كتبه الله لا زيادة فيه ولا نقص، وأكد ذلك بقوله(وقد ضمن الله لنا رزقنا) في إشارة ضمنية إلى قوله تعالى:﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[29].

كما انتقد أسامة في مجتَمعه ظَاهَرة غدر الأَصدقاء وزوالَ المحبة ،إذ بات الغدر سجيةً عند البعض مثل قوله[30]:

صديقٌ لي تذكر بعد ودّ وأمُّ الغدرِ في الدنيا ولودُ

أراه ملالُه حسني قبيحا فصدَّ وأيسر الغدرِ الصَدودُ
وذمَّ اليوم ما حمدتهَ مني تجاربه، وأمس به شهيدُ
ولستَ ألومه فيما أتاه أساء فرابه الفعل الحميدُ
وقد يجدَ المريضَ الماء مرًّا بفيه وهو سلسالُ برودَ

يذكر الشاعر أنّ الغدر قد انتشر، ولا سيما بين الأصدقاء، إذ يظهر أسامة استياءه من هذه الظاهرة التي شاعت حتى كأنّها (أمًّا ولودا) أي: أنّ المجتمع مملوء بهذه الصفات السلبية بحسب رأي الشاعر، فالصداقة لم تعد كما كانت عليه سابقا قائمة على الإخلاص والوفاء، بل أضحت مرتبطة بالمصالح، فالظاهر يتمثل بالود والوفاء، في حين أنّه يضمر في صدره البغض والغدر؛ لذلك أصبحت الروابط الاجتماعية غير متماسكة، وهي كما يرى الشاعر أقرب إلى الرياء والنفاق.

وقد أضفى الطباق في النص تأثيرا كبيرا في تبيان الصورة التي يروم الشاعر إيصالها إلى المتلقي، لأنه بجمعه الأضداد يشكّل صورا ذهنية متناقضة غايتها تنشيط ذهن المتلقي.

كما لا يخفى على القارئ حسن إشارة الشاعر إلى بيت المتنبي[31]:

ومَنْ يكُ ذا فَمٍ مرٍ مَريضٍ يَجِدْ مُرًّا به المَاءَ الزُّلالا

وفي السياق ذاته، قوله[32]:

انظر بعينك هل ترى أحدًا يدوم على المودّه
لترى أخلاء الرخا ء عدًا، إذا نابته شدّه
ولكلِ ما تأبى وتهوى إن صبرتَ مدى ومدّه

يطرح الشاعر تساؤلًا موجها إلى المتلقي ويحثّه على النظر في حياته وعلاقاته الاجتماعية، إذ إنّه يلفت النظر إلى أنّ الصداقة الحقيقية أضحت نادرة ولاسيما في أوقات الشدّة، فكل الأصدقاء يظهرون في أوقات الرخاء والدعة، لكنهم يتوارون عن الأنظار عندما تواجهك الشدائد، مبينا أن هذه العلاقات زائفة ومؤقتة ولا تستمر مدّة طويلة؛ لأنّها تستند إلى المصالح فحسب.

كما تناول أسامة ظاهرة التعلق بالأوهام والوعود الزائفة وتصديقها، موجها النصيحة إلى الآخرين بعدم الوثوق بأي شخص من دون التحقق من صدق أقواله، كقوله[33]:

بيني وبينهم هنات في الحشا منها ندوب ما بقيتَ وما بقوا

لا تغترر برجائهم أن يحسنوا كما قد رأينا من رجاء يخفقُ
خذ ما تراه ودع أحاديث المُنى إنّ الأماني فيهم لا تصدقُ
واغث فإنّ السيل قد بلغ الزبى حقًا وأدركني قبيل أُمزقُ

يتبين أسامة أنّ ما بينه وبين الآخرين مشكلات وخلافات عدّة ولاسيما ذوي رحمه[34]، إذ تركت أثرا عميقًا في نفسه، ممّا جعل إصلاحها أمرًا غاية في الصعوبة، فهذه الهنات لم تُمحِ من ذاكرته على الرغم من مرور زمن طويل، ممّا يدل على أنْ جذورها مترسخة، فالعلاقات الاجتمَاعية هشة تفتقر إلى الصدق والثبات والديمومة، وهذا ما يظهر أزمة متجذرةً في مجتمع الشاعر.

كما نبه أسامة بن منقذ إلى أنّ التعلق بالأوهام لا يجدي نفعا بل على الإنسان عدم الركون إليها، وأن يسعى إلى أفعال ملموسة، وهذه الأزمات التي بدأت تطفو على سطح المجتمع، وصلت إلى حدّ لا يُطاق، وقد استعان الشاعر بالمثل العربي المشهور (بلغ السيل الزبى)[35]، ليظهر لنا عجز المجتمع عن حلّ هذه المشكلات وعلاجها بشكل صحيح.

وفي النسق ذاته، قوله[36]:

سرْ عن بلادهم فقد سئمتْ بها عيسى مَحولَ معرسي ومناخي[37]
ودِع الأماني إنّها غرارةٌ ووعودها للطامعين أواخي[38]

يشعر أسامة بن منقذ من مجتمعه بالإحباط من الأوضاع في بلاده، ويعبر عن شعوره بالملل من تكرار أحداث هذه الواقع المؤلم، فهو ينتقد الأماني الزائفة التي يعيش فيها البعض، ويشير الشاعر إلى أن هذه الأماني هي مجرد أوهام تخدع الناس، وهي لا أساس لها من الصحة، وهي تعيق الناس عن اتخاذ خطوات حقيقية لتغيير واقعهم البائس، لذا يدعو الشاعر إلى الرحيل من تلك البلاد، وقد أضفى إسناد الفعل (سأم) إلى العيس (الإبل) عن طريق المجاز فاعليةً للمعنى الذي يبتغيه الشاعر.

ويدعو الشاعر الناس إلى توخي الحذر، فكثير منهم ظاهرهم يختلف عن باطنهم، ممّا يدل على وجود نظرةٍ تشاؤمية كقوله[39]:

لا تأمنن كيد العدو، فأمن كيدهم غرر[40]
كُن منه إن كان القويَّ، أو الضعيفَ على حذر
فالماء يطفي النار طبعا في الصفاء وفي الكدرْ

يدعو الشاعر إلى الحذر من الآخرين، وعدم الثقة الزائدة، فيهم، فأسامة يوجه نصيحةَ إلى الأفراد الذين يبالغون بحسن الظن بالآخرين؛ لأنّ كثيرا منهم يخفون في صدورهم نيات سيئة، فالثقة إن زادت عن حدّها، فهي مخاطرة قد تؤدي بهم إلى الفشل، فاليقظة مطلوبة، والحذر واجب في المجتمع الذي تتقاذف فيه الأمواج، ويعج بعدّة من الظواهر الاجتماعية السلبية، ونلمح في هذا النص، وفي غيره نظرة انعدام الثقة بالناس عند الشاعر، ويبدو ذلك راجعا إلى التجارب المؤلمة التي عاشها.

ومن الظواهر الاجتماعية السلبية التي ذكرها الشاعر في ديوانه الحسد والتشفي، ومن ذلك قوله[41]:

قل الذين يسرهم ما ساءنا لا زايلتكم حسرةٌ وتلهفُ[42]

شملي، بحمد الله بعد تشتّت وتفرُّق مجتمع متألّفَ

والمالُ إن غال الزمانُ تلادهً وسلمتَ سدّ مكانه المستطرفُ[43]

يبدو أنّ شاعرنا عانى من الوشاة، شأنه شأن الكثير من الشعراء والأدباء، فقد وجه تحذيراً شديداً إلى الذين وقفوا ضدّه سواء بالتشفي أو الوشاية داعياً عليهم ألّا فارقتهم الحسرة؛ لأنهم يجدون سعادتهم في مصائب الآخرين، وهي ظاهرة منتشرةٌ في أغلب العصور، وهي تنم عن الحسد وسوء النية، فهذه الفئة من المجتمع تفرح بأتراح غيرها، وهذه من الظواهر الهدّامة لنسيج المجتمع، فهؤلاء لا يستحقون _بزعم الشاعر_ سوى الحسرة والندم.

ويبدي الشاعر قوته وعزيمته واصراره على الرغم ممّا مرّ به من ظروف شتتته وفرقته إلّا أنّه يعبّر عن فخره باستعادة قوته، وعبر هذه الأبيات وغيرها يدعو أسامة ضمنيا الى التآلف ونبذ التشتت والتفرقة.

ولم يخلُ شعر أسامة من نقد فئة من المجتمع همها مراقبة الناس وانتظار أي عثرةٍ او كبوةٍ لهم، كي يفرحوا بها، كما في قوله[44]:

أرضَ الخمولَ تعشْ في نجوةٍ ومن معانـــــــدة العـــدا[45]

دون المعالي عدوةً إن خضتها متقـمصـا أوردتَ مهجـتك الردى[46]

وإذا سلمت ونلتَ أيسر بغية منها جعلـــتَ لك البرية حسـدا [47]

فاسمع نصيحة من يكاد بعلمه بالدهر يدري اليوم بالآتـــي غدا[48]

يسلط الشاعر الضوء على ظاهرة مراقبة الناس والتدخل في شؤونهم، فإذا أنت رضيت بالخمول عشت في نجوة أي: دلالة على الراحة والابتعاد عن شرورهم، أما إذا شمرت عن ساعد الجد بطلب المعالي والدرجات العلى

بقوة ورباطة جأش، فقد أدخلت نفسكَ في الهلاك، فإذا سلمتَ من ذلك، ورضيتَ بأدنى أمرٍ أصبحوا لك حسادا، دلالة على شدّة أذاهم، وقوة تأثيرهم في كلِ الأحوال والظروف.

لكن الشاعر يدعو إلى الابتعاد عن الخمول وخوض غمار هذه الحياة متسلحا بالشجاعة والحكمة.

ولم يخل مجتمع أسامة بن منقذ من الوشاية هذا المرض الاجتماعي الخطير، إذ قال الشاعر[49]:

وموضعي منك لا تسمو الوشاة له ... ولا يغيره كَيسي ولا حُمقي[50]

وإنّما قالةٌ جاءت، فضاقَ لها ... صدري ولو غيرَكَ المُعني لم يضقِ

كذّبتها ثم ناجتني الظنون بـ ... أنّ الدهر ليس بمأمون فلا تثقِ

كم قد أغصُّ بما تمري مذاقته ... ونغّص البارد السلسال بالشرق[51]

توقع الخوف ممّن أنت آمنه ... قد تنكأ الكلْم كفُّ الآسي الرفقِ[52]

فالوشاية جعلت صدر أسامةَ ضيقا حرجا كأنّما يصعد إلى السماء، فالوشاة الذين أفسدوا عليه حياته في شيزر، وتتمزق نفسه بين تصديق ما بلغه عن أبيه وتكذيب ذلك، فتذهب به الظنون كل مذهب، فهو يطمئن إلى مكانته عند أبيه، ويثق بحسن رأيه فيه، فيرده عن ذلك خوفه من الوشاة، والإشفاق من كيدهم[53].

وأضفت الصورة البيانية في النص تأثيرا كبيرا في إثبات ما يروم الشاعر إيصاله إلى المتلقي، فـ(تنكأ الكلم) استعارة تمثيلية توضح الجرح ككيان مادي يمكن أن يفتح، و(كف الآسي)اي: الطبيب تمثل اليد التي كان من المفترض أن تكون سببا في شفاء الجرح، لكنها جاءت بمعنى الضد، فأعطت _هنا_ المفارقة جمالاً إضافيا لهذه الأبيات، فالشاعر يعبر عن أن الألم قد يأتيك ممّن تظن أنه من المفروض أن يكون سببا في العلاج.

ويواصل الشاعر انتقاده لمجتمعه بأسلوب فني رفيع ،إذ يقول[54]:

أصبحتُ في زمنٍ يشيب لجوره ... فود الجنين ويهرم المولودَ[55]

وإذا شكونا اليوم، ثم أتى غدٌ ... قُلنا: ألا يا ليت أمسِ يعودُ

يصف الشاعر مظاهر الزمن الذي يعيشه، فهو بالغ القسوة، ليأتي أسامة بالمبالغة في إثبات ذلك، إذ يشيب فيه الجنين الذي هو ما زال في رحم أمه، ويبلغ المولود من الشدّة والجهد ما يجعله يبدو هرما، وفي ذلك إشارة إلى حجم المصائب والمحن التي تثقل كاهل المجتمع، وتتعمق نزعة التشاؤم لدى أسامة مع شعوره بأنّ كل يوم يأتي يكون أشد سوءا من سابقه، حتى بات الناس يتمنون العودة إلى الماضي على الرغم مما فيه من مصائبَ وآلام ومحن.

ولم يغب اللؤم، ومن اتصف به من الناس من ذهن الشاعر، إذ قال[56]:

ظلمت شعري وليس الظلم من شيمي يطيعني حين أدعوه وأعصيه

لهم أن يذكر القوم اللئام بما فيهم فأزجره عنه وأثنيه

وليس من خلقي ثلب الغنى وإن جنى ولا ذكر ذي نقصٍ بما فيه

أسامة بن منقذ في النص يقرُّ بأنّه يظلم شعره ــمجازاــ عندما يمنعه عن التعبير بحرية، ولعل مرد ذلك إلى التربية السليمة، وكونه من سلالة أصيلة توارثت الإمارة سنين عدّة، لذا فهو يترفع عن المهاجاة والمهاترة التي لا تليق بأصحاب الخلق الرفيع، والمنزلة العالية؛ لذا فهو يترفع عن ذلك.

الخاتمة:

1. كشف الشاعر النقاب عن الظواهر الاجتماعية السلبية مثل فقدان العدالة الاجتماعية وغيرها، فضلاً عن الظواهر الخاصة بالفرد مثل البخل والخداع والوشاية... وغيرها.
2. كان أسامة بن منقذ شجاعا في تبيان الظواهر السلبية للمجتمع في شعره كما كان شجاعا في المعارك.
3. على الرغم ممّا أصاب الشاعر من ضيق وظلم وحسد وتشفي إلّا أنه بقي متماسكًا وإن طغت على بعض أشعاره نزعة تشاؤمية.
4. لم يكتفِ أسامة بتحديد عيوب المجتمع، بل شخّص في بعض قصائده العلاجَ مُنطلقًا من قيم دينيةٍ واجتماعية رفيعة، فهو يدعو إلى عدم الالتفات إلى الناس، وعليك أن تخوض غمار الحياة متسلحا بالإيمان والإرادة والحكمة.
5. أحسن الشاعر في استعمال الأساليب والصور البيانية في إظهار المعاني التي يروم إيصالها إلى المتلقي.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1. أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية في بلاد الشام، محمد علي الهرفي، دار المعالم الثقافية، الإحساء، المملكة العربية السعودية.
2. البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، المحقق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1408هـ - 1988م.
3. تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، د.ت.
4. تأريخ دمشق ابن العساكر (ت 571هـ)، تحقيق: محي الدين أبي سعيد، دار الفكر، بيروت، 1995م.
5. خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، العماد الأصفهاني(597هـ)، تحقيق: د. شكري فيصل، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1955م.
6. ديوان ابن الرومي، شرح الاستاذ: أحمد حسن، دار اكتب العلمية_ بيروت، ط3، 2002م.

7. ديوان أسامة بن منقذ (584هـ)، تحقيق: د. أحمد أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، عالم الكتب، بيروت_ لبنان، ط2، 1983م.
8. ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت، دراسة وتبويب: د، مفيد محمد قميحة، دار العلمية، بيروت_ لبنان، ط، 1413هـ_1993م.
9. ديوان الطغرائي: أبو إسماعيل الحسن بن علي (ت 515هـ)، تحقيق يحيى الجبوري وعلي جواد الطاهر، ط وزارة الثقافة، بغداد 1976م.
10. شرح ديوان المتنبي، لعبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت_ لبنان، 1407هـ_1986م.
11. شعراء شاميون في العصر الأيوبي، د. شفيق محمد عبدالرحمن الرقب، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ط1، 2009م.
12. شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، د.محمد علي الهرفي، دار المعالم الثقافية، الأحساء، المملكة العربية السعودية، د.ت.
13. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة 1407 هـ - 1987 م.
14. في الأدب الأندلسي، د، محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق_ سوريا، ط1و 2000م.
15. في النقد الأدبي الحديث، منطلقات وتطبيقات، د، فائق مصطفى، د. عبدالرضا علي، جامعة الموصل_ العراق، ط1، 1989م.
16. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت ٥١٨ هـ)، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد [ت ١٣٩٢ هـ]، دار المعرفة – بيروت، لبنان،
17. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة الخامسة، 1420هـ / 1999م.
18. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو 770هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، د.ت.
19. معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: 626هـ)، المحقق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1414 هـ - 1993 م.
20. ملامح النقد الاجتماعي في شعر يحيى الغزال، د. زياد طارق جاسم، (بحث)، مجلة كلية العلوم الإسلامية، بغداد، العدد (39)، 2014م.
21. النقد الاجتماعي في الشعر العربي الحداثي، فيصل أحمد محمد المتعب، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية_ جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2003م.

الهوامش:

(1) انظر: ترجمته في تأريخ دمشق، ابن عساكر (ت 571هـ):90/8، وخريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، العماد الأصفهاني،(597هـ):499/1، ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦٢٣هـ):100/1،

(2) ينظر: أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية، جمال الدين الآلوسي:٧

(3) ينظر: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، محمد علي الهرفي: ص 231.

(4) ينظر: المصدر نفسه: ص 249.

(5) خريدة القصر: 498/1.

(6) معجم الأدباء: 188/5.

(7) البداية والنهاية، لابن كثير (٧٧٤ هـ): 331/12.

(8) ينظر: الأدب الأندلسي، د. محمد رضوان الداية: ص 173.

(9) في النقد الأدبي الحديث، منطلقات وتطبيقات، د. فائق مصطفى، و د. عبدالرضا علي: ص 179.

(10) النقد الاجتماعي في الشعر العربي الحداثي، فيصل أحمد محمد المتعب، رسالة ماجستير، المقدمة: ص ت.

(11) المصدر نفسه ، المقدمة: ت.

(12) ينظر: ملامح النقد الاجتماعي في شعر يحيى الغزال، د. زياد طارق جاسم، (بحث): ص 173.

(13) في الأدب الأندلسي: ص 173.

(14) الظاهرة الاجتماعية هي أنّها (نوع من السلوك سواء كان ثابتا أو متغيرا، ويؤثر على المجتمع بأكمله وقد يكون مقيدا لبعض الأفراد، ويفرض عليهم دون موافقتهم)، ينظر معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مادة Phenomenon.

(15) ديوانه: ص 302.

(16) ديوان الحطيئة: ص 43.

(17) ديوانه: ص295.

(18) لحى الله فلانا: أي: قَبَّحه ولَعَنه، ينظر: تاج العروس:443/39.

(19) سورة الفرقان من الآية 44.

(20) ديوانه: 239.

(21) ديوان ابن الرومي: ص 275.

(22) ديوان المتنبي شرح البرقوقي: ص1254.

(23) ديوانه: ص337.

(24) ديوانه: ص 334_ 335.

(25) شعراء شاميون في العصر الأيوبي، د. شفيق محمد: ص88.

(26) ديوان الطغرائي: ص 54.

(27) سورة النور من الآية39.

(28) الأبيات لم أجدها في الديوان، ينظر: شعر الجهاد في الحروب الصليبية: ص 241.

(29) سورة هود الآية 6.

(30) ديوانه: ص 298.

(31) ديوان المتنبي شرح البرقوقي: ص 939.

(32) ديوانه: ص283.

(33) هذه الأبيات لم أعثر عليها في الديوان، ينظر: شعراء شاميون: ص86.

(34) ينظر: المصدر نفسه: ص86.

(35) مجمع الأمثال، الميداني (٥١٨ هـ): 96/1.

(36) ديوانه: ص 283.

(37) معرس: من عرس القوم في آخر في الليل للاستراحة، والمناخ: مبرك الأبل، ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، الجوهري (٣٩٣ هـ):948/3.

(38) الأواخي: جمع أخية، وهي عود في الحائط، أو حبل يدفن طرفه في الأرض ويبرز طرفه كالحلقة، تشد بها الدابة، ينظر: تاج العروس، الزبيدي (١٢٠٥ هـ): 43/37.

(39) ديوانه: ص 287.

(40) الغرر: الخطر، ينظر: مختار الصحاح، الرازي (٦٦٠ هـ): ص255.

(41) ديوانه: ص 287.

(42) لا زايلتكم: لا فارقتكم: ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية:1720/4.

(43) التالد: القديم، ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي (٧٧٠ هـ):76/1، المستطرف: الجديد أو المستحدث، ينظر: العين ،الخليل بن احمد الفراهيدي (١٧٥هـ):415/7.

(44) ديوانه: ص 285

(45) النجوة: المرتفع من الأرض، ينظر: تاج العروس:33/40.

(46) المهجة: الروح، ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية:342/1.

(47) وردت في الديوان: حسد.

(48) وردت في الديوان، غد.

(49) هذه الأبيات لم أجدها في ديوانه، ينظر: شعراء شاميون: ٨٧.

(50) الكَيس: الفطن.

(51) السلسالُ: الماء البارد.

(52) تكأ: تؤلم، الكَلْم: الجرح، الآسي: الطبيب.

(53) ينظر: شعراء شاميون: ص 88.

(54) ديوانه: ص 298.

(55) فود: الشعر الذي على جانب الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام، ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير:482/2.

(56) لم أجد هذه الأبيات في ديوانه، ينظر: شعر الجهاد في الحروب الصليبية: ص 243.